المرجعيات الثقافية في محكي الذات الروائي
. الأبعاد الإيديولوجية والسياسية والاجتماعية .

Cultural references in the narrative self-narration
Ideological, political and social dimensions

د/حفيظة سوالمية*

أستاذة محاضرة " أ "

جامعة العربي بن مهيدي . أم البواقي (الجزائر)

Hafidasoualmia04@gmail.com

تاريخ الارسال:2021-06-02	تاريخ التقييم:2021-06-21	تاريخ القبول:2021-06-30

ملخص:

يتعلق المحكي المرجعي بذات يعرف بها ويعرض كل ما يخصها ويؤثر فيها من قريب أو بعيد، لذلك لا يمكن أن نتصور مشروع محكي الذات الروائي بمعزل عن سياقات إيديولوجية وسياسية واجتماعية تغترف منها الذات أفكارها وتوجهها ومبادئها، ومقوماتها، لأن الذات لا تبحث عن هوية فردية ضيقة وإنما تنشد تحقيق كيان خاص ضمن مشروع الكيان الجمعي.

الكلمات المفتاحية: المحكي المرجعي، الخطاب الإيديولوجي، البعد السياسي، البعد الاجتماعي، الرواية.

Abstract

The referential narrative is related to a self that identifies it, and presents everything relevent to it and influences it from near or far. Therefore, it is not possible to imagine the

narrative self-narration issue in isolation from ideological, political and social contexts from which the self extracts its ideas, orientation, principles, and constituents, because the self does not look for a narrow individual identity, but instead seeks to achieve a private entity within the collective entity project.

Key words: referential narrative, ideological discourse, political dimension, social dimension, novel.

*المؤلف المراسل.

1. تمهيد:

تمثل الكتابة ذات المرجعية الذاتية جانبا عامرا بالحياة والإبداع والفكر، فهذا الفن الأدبي يحاكي الذات ويحكي آلامها وآمالها، ويجسد فكرها ومبادئها ويشكل عالمها الذي تطمح في بنائه بناء متفردا ومتميزا ضمن كيان جمعي لا يمكنها أن تنفصل عنه بأية حال من الأحوال، تقول جليلة الطريطر:« لقد كان المشروع السير ذاتي العربي الحديث، يحتضن في نفس الوقت المعضلة الفردية والمعضلة الجمعية. كان يبحث في تأصيل الكيان الفردي، وفي إيجاد صيغة إيديولوجية قادرة على تأصيل الكيان الجمعي وترميم هويته المتداعية المختلفة...»[1].

وانطلاقا من كون الكاتب يأتي إلى ذكر كل الأسباب الخفية والظاهرة التي شكلت تكوينه وجعلته يؤمن بأفكار معينة، فإن أغلب مؤلفي السيرة الذاتية يسعون منذ بداية النص إلى بلورة هذه الإيديولوجيا وهذه الأفكار السياسية، وتبرير التوجه إليها، وحتى التكريس لها أحيانا.

2 . البعدان الإيديولوجي و السياسي:

إننا نقرأ مثل هذه المحاولات في عديد الروايات السير ذاتية العربية، وخاصة منها تلك التي لم تعلن وجودها في ميثاق سير ذاتي صريح، ولكنها نصوص روائية اتبعت إستراتيجية التلون بالمكون السير ذاتي حيث نلمح شخصية المؤلف ونسمع صوته في العمل الإبداعي، فضلا عن أفكاره وإيديولوجيته التي يؤمن بها.

ومن مثل ذلك ما كتبه رشيد بوجدرة، والطاهر وطار والحبيب السائح وواسيني الأعرج من الجزائر، ومحمد برادة وعبد المجيد بن جلون من المغرب وحسونة المصباحي من

تونس، وأمين معلوف من لبنان وغيرهم. ففي نصوص هؤلاء « كثيرا ما يتقاطع الذاتي مع المتخيل لتأخذ الشخصيات ملامح مؤلفيها وتتبنى أفكارهم وإيديولوجياتهم وتعبر عن هواجسهم وأحلامهم»[2] .

يجهر بعض المؤلفين بالخطاب الإيديولوجي في نصوصهم بينما تضمر نصوص أخرى إيديولوجيات أصحابها المبثوثة هنا وهناك، فهذا واسيني الأعرج مثلا، وإن لم نقرا له رواية سير ذاتية مكتملة في نص واحد إلا أن القارئ يمكنه أن يرصد ذات هذا ا لروائي تتسلل إلى نصوصه الروائية من خلال التقاطع الحاصل بين "الأنا الكاتبة" و"الأنا الروائية"، إذ إن وجود أبطال أعماله الروائية تشف عن ملامح كاتبها، حتى أصبحت هذه الخاصية من مميزات الكتابة الروائية عند واسيني الأعرج [3].

كما تجدر الإشارة إلى أن تدخل الذات الكاتبة في نصوص الأعرج تتجسد خاصة في طرح أفكارها وإيديولوجياتها، حتى عرف أدب هذا المبدع بكونه كتابة إيديولوجية بشكل عام. ويتحدث كمال الرياحي عن هذه الخصوصية قائلا: «... وإضافة إلى كل هذه العلامات الدالة على انسراب الذاتي في النص الروائي. يمكن رصد هذه الخصوصية من خلال " التدخل السافر" للروائي عن طريق شخصياته التي تحولت أبواق تعبر عن آرائه في الثورة الجزائرية وفي الإسلاميين وفي السلطة وفي واقع الجزائر ومحنتها»[4] .

لقد ارتبط المكون السير ذاتي في النص الروائي بالتحولات السياسية والإيديولوجية التي ميزت تاريخ الفرد ضمن تاريخ المجموعة، وما طرأ في العالم من أفكار جديدة.

ويمكن الرجوع على سبيل المثال إلى أعمال عبد الحميد بن هدوقة: ريح الجنوب، ونهاية الأمس، والجازية والدراويش التي طرح من خلالها إيديولوجية مرتبطة بذكريات الكاتب في مرحلة من مراحل حياته، كما تعد سيرة حياة الكاتب الطاهر وطار المادة الأساسية في رواياته والتي لم تبتعد عن الواقع الإيديولوجي الذي عايشه الكاتب إذ في روايتيه الأخيرتين يتحرر التقاطع بين المكون السير ذاتي والمكون الروائي من خلال عتبة العنوان، حيث يتماهى الاسم الشخصي "الطاهر وطار" مع "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" " والولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء". وهما روايتان تنفتحان على بوابة السيرة الذاتية من خلال عدة إشارات في المتن نذكر منها مراسلات شخصية تمثلت في رسالتين بعث بهما

الشاعر عيسى لحيلح وهو في الجبل إلى الكاتب، حيث يخوض الكاتب في طرح أفكاره وإيديولوجيته.

ثم إنه في "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" يذكر شخصيات عديدة تاريخية وإسلامية مختلفة وهو من خلال ذلك يدعونا إلى قراءة التاريخ العربي الإسلامي من جديد، مع ضرورة التفكير قبل إصدار أحكام بناء على آراء جاهزة، وهو يرى أن تاريخ الأمة العربية الإسلامية قد عبثت به أيادي كثيرة وأفسدته وفي ذلك دعوة إلى عدم الوثوق في كل ما نقرأه عنه.

ويعد الطاهر وطار من الكتاب الذين حملوا هواجس الواقعية الاشتراكية في وقت ما، حتى أضحى أحد كتابها، إذ آمن بمبادئ الاشتراكية وحلم الإنسان في العدالة، وأيّد الثورة ضد سلطة الإقطاع والاستغلال. والدليل على هذه الإيديولوجية الاشتراكية ما عبرت عنه الشخصية المركزية في الرواية بقولها:« رأيتني ممزقا بين أنا وبين آخر غيري، نصفي ممتلئ بالقرآن الكريم والحديث الشريف وبابن عربي والمتنبي والجاحظ والشنفرى وامرؤ القيس وزهير بن أبي سلمى ومحمد بن عبد الوهاب ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني، ونصفي الآخر ممتلئ بماركس وانجلز ولينين وسارتر، وغوركي وهيمنغواي، وهيجل ودانتي»[5].

فالطاهر وطار بشيء من السرد المرجعي استطاع في روايته "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"أن يبلغ من القارئ فكره من خلال ترجمة إيديولوجيته وأفكاره، فالتأمل في النص يكشف عن دلالات عميقة عالج فيها الكاتب مرحلة من تاريخ الجزائر وعلاقتها بالماضي، مستعينا بثقافة تراثية تاريخية كبيرة، ليصل إلى رسم الصورة التي يرى عليها الواقع، في عالم متناقض ثقافيا وسياسيا واجتماعيا، عالم يعج بالفوضى وتضارب الإيديولوجيات.

كما يطالعنا من الجزائر كذلك الكاتب رشيد بوجدرة بكتابته الإيديولوجية والتي تفوح منها رائحة الاعتراف والسرد المرجعي، حيث أن روايات هذا المؤلف في معظمها «يحدث فيها الارتداد دائما إلى ذكريات الطفولة، وما يلاحظ فيها تشابه هذه الذكريات، وأحيانا تطابقها لدرجة أنها تشكل بناء واحدا أو أنها تصور طفلا واحدا يغير بعضا من ملابسه في بعض الأحيان، وفي أغلب الأحيان يكتفي بتغيير لون هذه الملابس فقط حتى وإن تغير الراوي في كل رواية »[6].

يتجلى الخطاب السير ذاتي ببعده الإيديولوجي أيضا عند عديد الكتاب الذين ترجموا لذواتهم إيديولوجيا، والملاحظ أن « الطروح التنويرية الذاتية لم تكن لتتجه على الدوام في المدونة السير ذاتية العربية اتجاها واحدا ولا موحدا، لوجود اختلافات جوهرية في رؤى المترجمين لذواتهم الإيديولوجية.»[7] ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا الحصر، سلامة موسى في سيرته الذاتية والذي « كان في دعوته العلمانية غير مكترث كثيرا أو قليلا بمدى انسجامها مع معطيات الواقع العربي الروحانية الخاصة، لأنه كان يرى العلمنة قيمة متكاملة شاملة، وهي المقياس الفاصل بين الصالح والطالح عنده... »[8].

كما أعلن هذا المؤلف وجوده من خلال الأفكار التي طرحها حول الدين وحرية المرأة، والعنصرية العرقية والدينية وغيرها من الأفكار التي تأثرت بالنظرية الماركسية التي مثلت بالنسبة لسلامة موسى منهاجا علميا لاستقراء الواقع[9].

كما استطاع نجيب محفوظ من خلال فصول حياته التي تسربت داخل أعماله الروائية وحتى من خلال كتابه "أصداء السيرة الذاتية" أن يروج لأفكاره، وإيديولوجيته حيث يبث جملة من الآراء والمواقف والانطباعات والتجارب والرؤى، وإن كانت اتخذت شكلا تجريديا مطلقا في كتابه الأخير ولكنها مقصودة من طرف الأديب حتى يصل إلى المعاني الإنسانية العامة التي يريد التعبير عنها أو معالجتها وهو القائل:« إنني فعلا في أعمالي الأخيرة أشد درجة من التجريد في التعبير لأصل إلى دلالة إنسانية عامة... فأنا أبدأ من الواقع لا من أفكار مجردة..، وأنا أجنح الآن إلى التجريد في التعبير لأحقق التعبير عن الإنسان والإنسانية أكثر من التعبير عن هذا أو ذاك من الأفراد أو المواقف... »[10].

لذلك نقرأ سيرة ذاتية بشكل تعبيري جديد يغلب عليه التجريد الذي استطاع من خلاله نجيب محفوظ أن يشحن عباراته بفكر وإيديولوجية لطالما حاول جر القارئ إليها من خلال رواياته الواقعية والفلسفية المعروفة.

كما استطاع هذا المؤلف أن يبث آراءه حول التحولات السياسية الكبيرة التي شهدها العصر وذلك من خلال نصوصه الكثيرة منها رواية "المرايا" التي كانت إيذانا بعودته إلى التوازن والتعود على الواقع الجديد ليصدر عليه أحكامه، ثم كتب بعدها رواية "الكرنك" وكانت نقدا لسلبيات جمال عبد الناصر وخاصة تعذيب البشر، وقد عبر نجيب

محفوظ في كتابته حين قال:« إن لدي استعدادا لأن أكتب قصة من هذا النوع خدمة لرأي أحترمه، ولظروف سياسية أمارس دوري فيها...حتى لو قدر لهذه القصة أن تموت فور انتهاء المناسبة التي كتبت عنها ومن أجلها»[11]، إنه إقرار من المؤلف بأنه يكتب ذاته، آراءه، واقعه، ظروفه السياسية من خلال رواياته التي تشملها المرجعية السير ذاتية في كل الأحوال.

لقد أكد كثير من النقاد على أنه من بين الأسباب التي تدعو الكتاب إلى تأليف سيرهم الذاتية تحديد موقفهم تجاه قضايا تخص الوجود أو المجتمع أو السياسية[12]، لهذا تحمل الرواية الأوتوبيوغرافية تبعا لذلك أبعادا وجودية فلسفية إيديولوجية وسياسية.

فهذا إدوارد سعيد في مقدمة "خارج المكان" يكشف عن الأسباب الموضوعية التي دفعته إلى تأليف هذا الكتاب الذي يحمل سيرته الذاتية حيث يذكر كدافع أساس قائلا: « إن السبب الوحيد الذي مكنني من خوض غمار هذا المشروع المتناقض الذي هو كتابة مذكراتي، هو أنني بعد سنوات من حياتي خارج العالم العربي، هي سنوات دراسة وتعليم وعيش وكتابة كلها باللغة الإنجليزية، اتخذت قراري بعيد حرب 1967 بأن أعود سياسيا إلى العالم العربي الذي كنت قد أغفلته خلال سنوات التعليم والنضج الطويلة تلك، ولكن ما عدت إليه لم يكن له أن يكون عالم طفولتي، تلك الطفولة التي دمرتها أحداث العام 1948 والثورة المصرية والاضطرابات الأهلية اللبنانية عام 1958 »[13].

إن مفكرا مثل إدوارد سعيد يخوض غمار الكتابة السير ذاتية وبهذا التقديم يعني أنه مازال يبحث عن هوية وجوده التي تشكلت رغما عن إرادته بفعل عدة ظروف ومعطيات متشابكة ومعقدة أدت إلى شخصية غير مستقرة شأنها شأن الظروف السياسية التي ذكرها المؤلف على أنها المستفز الأول لتدوين سيرته الذاتية. وقد نظر الكاتب إلى هذه الشبكة المعقدة من ظروف حياته بوعي المفكر وغيرة العربي على قوميته وحنين المغترب للعودة إلى وطنه، وحيرة من يبحث عن مكانه، وخاصة بعد الحياة القلقة التي عاشها طفلا وشابا بين السفر الدائم والانتقال من مكان إلى آخر بعيدا عن مسقط رأسه.

إن هذه التجربة الحياتية الصعبة أراد إدوارد سعيد بفعل الكتابة ترجمتها وكذا تحسير المسافة في الزمان والمكان بين حياته اليوم وحياه بالأمس إذ يقول: « إلى ذلك نما

لدي شعور متزايد بأنه إذا كنت أشعر بوجود هوة من سوء التفاهم تفصل بين عالمي الاثنين، عالم بيئتي الأصلية وعالم تربيتي، فإن مهمة تحسير تلك الهوة إنما تقع علي وحدي دون سواي، فلم يكن لي من خيار غير السعي إلى هويتي العربية وتمثلها تمثلا... »[14]، ويضيف: « ومن منظاري الجديد بوصفي عربيا بالاختيار، أعدت قراءة حياتي المبكرة بما هي حياة من البحث عن الانعتاق والتحرر من القوالب الجامدة للعائلة والدين والقومية واللغة أيضا، قراءة تعيد إلي ما كنت أرغب فيه من تكيف أفضل وأكثر تناغما بين ذاتي العربية وذاتي الأمريكية»[15].

لقد استطاع إدوارد سعيد مدفوعا بكل هذه الأسباب والبواعث أن ينتج نصا سير ذاتي يحمل من ملابسات الوضع السياسي والتاريخي الذي يعيشه وطنه العربي والعالم ككل، من خلال عرض وجهة نظره في قضايا العالم ولا سيما القضية الفلسطينية التي باتت هاجسه وهاجس كل مفكر عربي إلى درجة أن بعض الباحثين وصفوا "خارج المكان" بأنه « كتاب خطير وهام ذلك الذي جعل المؤسسات الصهيونية تجند كتبه. فإدوارد سعيد بما كان له من مكانة فكرية مرموقة عالميا عد سلطة مؤثرة، وشهادة شخص مثله ستكون مسموعة، لا شك. فما يقوله في هذا الكتاب، لابد أن يرعب تلك المؤسسات التي تسعى لحجب حقيقة اغتصاب أرض فلسطين ونفي شعبها، والتي يفضحها سعيد، ها هنا، بأسلوب غير مباشر، هادئ، جذاب، وعذب»[16].

إن الأحداث السياسية ورأي الكاتب ودوره فيها تصبح مادة سائغة يسهل تسريدها في النص الأوتوبيوغرافي إذا كانت من صميم حياة المؤلف الذي تفاعل معها فأصبحت جزءا من ذاكرته، إذ شكلت فكره وانتماءه وتشكل عوالم نصه أيضا.

إنّ هذا هو ما تحقق في سيرة الكاتبة فدوى طوقان "الرحلة الأصعب" والتي كانت سيرة أدبية ثقافية سياسية لا تحكي فيها الأديبة قصتها فحسب، بل تحكي قصة الشعب الفلسطيني ككل والذي رغم ما يتعرض له من عدوان يحرص على وطنه وعلى قوميته العربية، يقول محمد معتصم عن "الرحلة الأصعب" بعد أن وصفها بسيرة المواقف السياسية : « وفي كتاب "الرحلة الأصعب" تكتب الشاعرة فدوى طوقان عن دورها السياسي، ومن خلاله عن التفاعلات السياسية في المنطقة التي فجرتها القضية

الفلسطينية والغطرسة الصهيونية التي تحلم بإسرائيل الكبرى وبالتالي إثبات الذات والوجود بالمنطقة العربية بالاعتداء على كل الجيران الذين يهددون استقرارها مثل مصر والأردن»[17].

ومن المقاطع التي يظهر فيها اهتمام الكاتبة بهذه المسائل السياسية الحساسة والدقيقة ما يأتي: « وأثناء لقائي بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر في أواخر ديسمبر العام 1968، حدثته عن أولئك المتجذرين في أرضهم منذ عشرين عاما برغم تحديات الحركة الصهيونية التي تواجههم، لاسيما المحاولات المبذولة لترسيخ العدمية القومية في وجدان الأقلية العربية،" كما حدثته عن معاناة المثقفين الوطنيين هناك من أدباء وشعراء ومفكرين، وما يكابدونه من الاعتقالات وأوامر الإقامة الجبرية التي تحدد تجوالهم في وطنهم، والتي أصبحت جزءا من حياتهم اليومية بسبب رسالتهم الكفاحية التي يحملونها ويبشرون بمضمونها الوطني والإنساني في الوسط العربي، وكم شعرت بالسعادة حين سمعت من إذاعة القاهرة التحية الحارة التي وجهها الرئيس بعد ذلك اللقاء إلى العرب الصامدين المناضلين تحت جناحي الخفاش الكبير منذ عشرين عاما»[18].

يعد هذا واحدا من عديد المواقف السياسية التي تسردها فدوى طوقان في سيرتها الذاتية، وهو دليل واضح على حسها السياسي والوطني، وأنها كانت تستشعر الظروف الصعبة والمرحلة العصيبة التي تعيشها فلسطين والدول العربية المجاورة.

كما أنه يمكن اعتبار رواية "الأعزل" السير ذاتية، من النصوص المعاصرة التي عبرت عن الذات السياسية عند حمزة الحسن ونستطيع القول إنها أوتوبيوغرافيا سياسية من البداية إلى النهاية صور فيها المؤلف قصة نضاله ورحلة هروبه من العراق إلى إيران عام 1988 مشيا على الأقدام وهروبه من إيران إلى باكستان على قدميه سنة 1989، موظفا في سرد حكايته من الهروب والسجن كل ما اختزنته الذاكرة من أحداث وتفاصيل محددا بدقة زمانها ومكانها في مقدمة كل فصل من فصول سيرته الروائية. يقول في أحد المقاطع:« كانت المعارك تشتد على جبهات الحرب. قوافل القتلى تتدفق. جرحت مرتين. لكن الجرح الغائر في القلب لا يزال محرقا... »[19]، وفي مقطع آخر:

« طهران 1988.

كانت الحرب لا تزال مشتعلة في أيامها الأخيرة حين كنت أجوس الطرقات في طهران بعد خروجي من السجن الإيراني أو بيت الضيوف المخصص للفارين من الحرب وهو صورة مختصرة للسجن بعد نهاية فترة التحقيق. من الأهواز إلى كهريز إلى كرج في طهران»[20].

ويعلن المؤلف لجوءا سياسيا غير مشروع عن طريق الهرب قائلا:

« 17 كانون الثاني 1989.

ليلة الهروب إلى باكستان عبر الحدود.

عبرنا الحدود ليلا قاسم الشريف وآخرون وأنا وسط ظلام صخري منذر بكل الاحتمالات. لا ضوء. لا أثر لدرب. ريح باردة تهب على الهياكل الخاوية. ريح حارة تكتسح الصخور والوجوه والمشاعر. قاسم يمشي أمامي كظل مبعثر. سألته بخفوت:

-هل تعرف الاتجاه؟

-لا

–لكن أين نمضي؟...»[21].

إن النص الأوتوبيوغرافي إذن فضاء مفتوح على ذات صاحبه وكل ما يحصل حولها ويؤثر فيها، فهذا الجنس الأدبي قادر على استيعاب الفكر والإيدولوجيا والسياسة وغيرها، لذلك نستطيع القول إن السيرة الذاتية يمكنها أن تحقق الوظائف الاجتماعية للأدب.»[22] فهي بذلك منبر تثبت الذات من عليه مواقفها وتسمع صوتها وتكرس لمذهبها الإيديولوجي، وأفكارها التي تؤمن بها، وعليه تصبح الكتابة السير ذاتية فعلا لا يتعلق باسترجاع الماضي وتدوينه فحسب، بل أفقا إبداعيا ينقل التجربة في تطلع إلى المستقبل.يقول عصام العسل:« فالسيرة الذاتية لا تصف الماضي والحاضر فقط، بل المستقبل القريب أيضا، وفي الحقيقة تحدث السيرة الذاتية عند حدود الزمانية الإنسانية»[23].

يتبين أيضا أن قراءة أخرى أكثر تعمقا هي من حق النصوص السير ذاتية العربية الحديثة لأن مقاربة جديدة متخصصة لهذا المنجز الأدبي من شأنها أن تكشف عن تصورات عميقة، ووجهات نظر مهمة، ورؤى إيديولوجية،ومنتوج فكري، هي جميعا ناتج تمثل الكتّاب لحيواتهم التي أرادوا أن تكون مكملة لحلقات مفقودة في تاريخ الإنسان العربي الحديث.

3- البعد الاجتماعي:

استطاعت الرواية السير ذاتية أن تحتوي توترات الذات الكاتبة عندما تنشط الذاكرة وتستفرغ مخزونها، كما لم تستنكف عن حمل قضايا المجتمع ومقتضيات التاريخ التي أضحت الوجه الآخر للذات ووجودها.

وإذا كانت الذات تأخذ موضعا مركزيا في الكتابة السير ذاتية، فإن حصر السرد حولها لا يسعف على بلورة نسيج سردي متكامل، وهذا ما تنبه إليه كتاب الأوتوبيوغرافيا بشكل غير مقصود أي تلقائي عندما استمدوا من التاريخ والمجتمع مادة مهمة أسهمت في تشكيل نصوصهم.

إن محكي الذات الروائي الذي ركز أصحابه على وقائع التاريخ وأحوال المجتمع ثري في المنجز الأوتوبيوغرافي العربي، وهذه النماذج لم تكتف بجعل موضوع السيرة الذاتية هو بناء الهوية الفردية وبلورتها وإنما اشتغلت على بناء الهوية الجماعية في سياقها الاجتماعي والتاريخي.

لقد استطاع عديد الكتاب التجرد من الأنانية في سرد تفاصيل الحياة التي عاشوها، ونقلوا تجاربهم الفردية متداخلة مع حياة الآخرين ومع الأحداث الأخرى التي تحصل من حولهم، حتى يوشك القارئ أن يحكم على حياة المؤلف منهم بأنها لا تكاد تتميز بشيء يخصها منفردة، بل هي حياة كل الجماعة.

وهذا ما نستشفه في المؤلفات السير ذاتية التي عاش أصحابها أزمات حادة مع مجتمعاتهم التي مرت بمراحل تاريخية صعبة ومؤثرة، ومن ذلك ما نقرأه من روايات أوتوبيوغرافية جزائرية ببعدها الاجتماعي الصارخ حيث الروح الجماعية تسيطر على كل الأفراد، وشخصية الفرد تذوب في الآخرين لأن هدفا مشتركا وغاية واحدة كانا يجمعهم.

ورغم غياب رؤية اجتماعية واضحة مقارنة بالرؤية الوطنية النضالية المسيطرة إلا أن "نجل الفقير" رواية سير ذاتية تعج بصور المجتمع وأحواله بتناقضاته وأخطائه ومزاياه، وقد أبدى مولود فرعون اهتماما كبيرا بوصف العادات والتقاليد التي تسود المنطقة الجبلية التي يعيش فيها بما تحمله من أبعاد سوسيولوجية متعددة. وكان الكاتب

قد تراءى له أن المجتمع القبائلي بعاداته وتقاليده ومعتقداته يمثل أكثر القضايا غموضا؛ أكثر حتى من أغوار ذاته وهواجس نفسه.

ولا أدل على اهتمام مولود فرعون في نصه السير ذاتي بتجلية معتقدات مجتمعه من بدئه روايته على لسان بطلها "فورولو" بهذا المقطع الذي يصور مكانة هذا الولد في البيت التقليدي الذي تسيطر عليه الأسطورة والعرف والتقليد الجاري منذ القديم :« ولدت في السنة المباركة 1912، قبل قرض تبراري الشهير الذي أهلك عجوزا عند ذرى الجرجرا ومسخها حجارة، والذي مازال إلى الآن يثير هلع الذين بلغوا الثمانين من بين القبائليين. ولما كنت أول مولود ذكر في أسرتي...صممت جدتي دون تردد على تسميتي فورولو (من أفر أي أخفى)، ومعنى ذلك أن لا أحد يمكنه أن يراني بعينيه الطيبة أو الشريرة حتى ذلك اليوم الذي أعبر فيه بنفسي على قدمي عتبة دارنا»[24].

كما يذكر هذا الكاتب بعض العادات والاعتقادات بلهجة يبدو عليها شيء من الاستسلام وتقرير الواقع ؛ أي غياب أي اعتراض أو رفض لهذه المعتقدات الفاسدة التي صار ينظر إليها على أنها مسلمات لدى المجتمع لا تقبل النقاش، ومثال ذلك يقول بعدما يروي عادة أبيه في الاعتناء بخروفين له وكيفية استغلالهما: « ويصادف أحيانا أن نذبح واحدا ونأكله. وكان من السهل الوقوع على تعلة لذبحه. كانت أمي مصابة بمرضين أو ثلاثة أمراض كثيرا ما تتحدث عنها إلا أنه لا يمكن معاينتها البتة. وبمحض الصدفة، أشار عليها درويش بأن تذبح جديا لونه في لون جدينا بالذات، وإذا لم تكن أمي المريضة فهو أبي، وقد أصابته ضربة شمس إلا أن الجميع يعلمون أن ذلك المرض مرده الجن، وأنهم يلازمون المريض لا يفارقونه حتى رؤيتهم سيلان الدم من جدي في لون جدينا»[25].

ومع أن المؤلف لا يبدي رفضا أو اعتراضا وهو يسرد مثل هذه الممارسات في مجتمعه إلا أنه يحكي ذلك بنوع من الهدوء ينبئ عن سخرية خفية تخطيء تصرفات أهله ومجتمعه لذلك يتبع كلامه قائلا: « أما الشخصية الثالثة التي كان يمكنها التسبب في ذبح الجدي المسكين فهو الابن الأوحد. أما الأخوات فان جنهن لم يكونوا يجرؤون على أكثر من أن يطلبوا بيضا»[26].

تنطوي هذه المقاطع وغيرها على إشارات واضحة تصف البيئة الاجتماعية التي خرج منها مولود فرعون وأغلب الكتاب الجزائريين الذين انصب اهتمامهم – قبل أن تصبح الثورة هاجسهم- على وصف عادات المجتمع وتقاليده، يقول عبد الكبير الخطيبي: « قبل الحرب، كان الروائيون الجزائريون في معظمهم، يريدون أن يكونوا مؤرخين ودارسين لعادات وتقاليد مجتمعهم، وأحيانا نلمس في كتاباتهم نغمات السخط والغضب. وبعض الاهتمامات الوطنية. وكان من اللازم انتظار فاتح نوفمبر لكي يشعر الكتاب الجزائريون بأنهم مسؤولون عن تاريخ جديد...»[27].

لقد أولى إذن مولود فرعون وغيره من كتاب السيرة الذاتية في الجزائر عناية بالغة بنقل سيرة مجتمعهم بأبعادها المختلفة، والتي تتلخص في:

- تعلق أفراد المجتمع في ظل ما يعيشونه من عوز وفاقة بترهات واعتقادات وتقاليد تأخذ الأولوية في حياتهم، إذ يسعى الفرد إلى تلبية حاجته إليها حتى على حساب تلبية حاجة بطنه إلى الطعام: «...كم نقدتهم طلامسهم؟ هنالك كانت تروح مدخرات عمي الضئيلة...»[28].
- النظرة الدونية إلى الأنثى، وتفضيل الذكر مهما كثرت أخطاؤه، وساءت تصرفاته: « أما الأخوات فإن جنهن لم يكونوا يجرؤون على أكثر من أن يطلبوا بيضا»[29].
- تراجع الاحتكام إلى الدين في ظل ما توارثه المجتمع من جهل وما يعيشه من أمية سببها الأول الاستعمار ومحاولاته في طمس هوية المجتمع.

وعليه يمكن القول إن الاستعمار لم يأت على حرية الجزائريين فحسب، بل أتى أيضا على تفكير المجتمع ووعيه، وخاصة المجتمع القروي البسيط، وفي هذا يقول صالح خرفي: « إنّ تجسيم احتلال الجزائر بأنه (مأساة اجتماعية) ليس من المبالغة في شيء، فهي الوجه الأكثر دلالة عليه، والأصدق ترجمة عن أبعاده ونواياه»[30].

لقد استطاع محكي الذات الروائي أن يعبر عن حياة الآخرين في بعدها الاجتماعي، وعن الملامح السير ذاتية للمجتمع، بما في ذلك تدني مستوى الوعي والثقافة في بيئة حكم عليها بالاستعمار وطمس الهوية والفقر المدقع، والجهل والأمية، والتخلف، فعاش

الفرد العربي المستعمر الإعدام المعنوي، والفهم القاصر، والتفكير الضيق. واستمر ذلك لسنوات طويلة من تاريخه.

وقد أقرّ بوجدرة بأنه لا يستغني عن المكون السير ذاتي الذي ما فتئ يطعم به روايته، خاصة فيما يتعلق بأمه وحضورها الدائم على صورة المرأة المضطهدة والزوجة التي يتعسف الزوج عليها بالقسوة والقهر والخيانة، في حين تظهر صورة الأب بلا ملامح، يمارس عليها الكاتب نوعا من التعتيم بقدر الغياب المعنوي لهذا الأب في حياة رشيد بوجدرة، الذي لم تعلق في ذاكرته إلا صورة الأب المتسلط، الخائن [31].

إن انفتاح رشيد بوجدرة على فضاء الأسرة والطفولة بكل ما تركاه في الذاكرة من رواسب يكشف عن خلفية توجه هذا الأديب الفكرية والإيديولوجية، حيث أضحت الكتابة السردية لديه شكلا من أشكال التعبير عن ذاته وعن مجتمعه بما يسيطر عليه من ذهنيات وأفكار، لذلك يمكن القول إن كتابات رشيد بوجدرة ارتبطت إجمالا بالتحولات الاجتماعية والسياسية والإيديولوجية التي ميزت التاريخ الوطني الجزائري الحديث والمعاصر.

وتختلف القيم الاجتماعية المستنبطة من النصوص السير ذاتية بحسب بيئة الكاتب التي عاش فيها والظروف التي حكمت مجتمعه؛ فهذه فدوى طوقان في "رحلتها الأصعب" ومن خلال إبرازها قيمة المقاومة، مقاومة الاحتلال ورفض الاستسلام له، تقصد إلى إثبات قيمة اجتماعية تتمثل في وحدة الشعب وتلاحمه ويتضح ذلك من المشاهد الكثيرة التي صورتها الكاتبة تصف فيها التماسك بين أفراد المجتمع الذين وحدتهم المعاناة المشتركة [32]، كما في مشهد متكرر يتمثل في لهفة الجيران لمساندة الأم الفلسطينية التي ينتزع الجنود الإسرائيليون أبناءها من حضنها: « في صبيحة كل غارة تفتيشية على بيتها، كانت نسوة الجيرة تهرع إليها للاطمئنان وللتعبير عن الشعور المشترك...»[33].

وهذا محمد شكري وهو يحكي قصة "الخبز الحافي" يسرد مأساة إنسان أبت ظروفه إلا أن يبقى في ظلمات الأمية حتى العشرين من عمره، وقد انجرفت سنوات طفولته في عالم البؤس حيث العنف يحل محل القوت. في بيئة مسحوقة خاضعة تحت وطأة الاستعمار وما ينتج عنه من فقر وجوع وأوبئة، وقد صور الكاتب هذه الأبعاد الاجتماعية من خلال وصف دقيق لمشاهد كثيرة كالأكل من المزابل، حيث يقول: « أكلت أوراق الكرنب

وقشور البرتقال وبقايا فواكه عفنة»[34]، فهذا الاعتراف لا يخص محمد شكري وحده بل يصف الحالة التي يعيشها كثير من المغربيين في مرحلة حالكة من تاريخهم، فمحمد الذي تعب من الضرب المبرح الذي أبلى جسده النحيل، كلما اشتدت حاجته إلى الطعام، وخوفا من أن يلقى مصير أخيه وكل ضحايا الجوع، كان يقتات من الفضلات القذرة، وما تجود به القمامة المتناثرة هنا وهناك.

وليس هذا فحسب بل أكل الجيفة أيضا صار أمرا مباحا في عرف الجائعين وهو ما ينزل بالطفل محمد وغيره كثير من مصاف البشر إلى مصاف الحيوانات التي رآها تنهش جثث الحيوانات وهو القائل: « عثرت على دجاجة ميتة، ضممتها إلى صدري وركضت إلى بيتنا...، أخي في ركن مدد...عيناه الكبيرتان الذابلتان ترقب مدخل الباب. يرى الدجاجة. تتيقظ عيناه. يبتسم. يتورد وجهه النحيل. يتحرك كأنه يفيق من إغماء...»[35].

ويعلق هشام العلوي على هذه الحالة المعيشية مستقرئا ما صوره محمد شكري من مشاهد تبين سطوة الجوع والفقرإذ يقول: « فعندما يحتد الجوع، يغدو العثور على دجاجة ميتة ظفرا عظيما تتيقظ له العيون الذابلة، ويبعث في الجسد العليل الفرح والقوة... ويصبح التقاط سمكة نتنة داستها أرجل المارة، أو طلب فطيرة خبز وسط حوض مائي تعكره نفايا البشر والمراكب، وإرغاما تتحطم عند حدوده كل الاعتبارات الصحية والاجتماعية والإنسانية»[36] .

كما ذهب هذا الباحث إلى استقراء أعمق يحصي من خلاله الأبعاد النفسية والاجتماعية الناتجة عن الجوع باعتباره إحساسا من جهة وحاجة بيولوجية من جهة ثانية، ذلك أن سد الرمق أضحى هاجس محمد الطفل حتى صار الجوع : « يضخم لديه الإحساس بالأهمية القصوى لكيانه البيولوجي كرأسمال حيوي وحيد، وفاصل بين الفناء والبقاء، مما يستوجب العناية به والحرص على عافيته»[37].

وهذا الإحساس ينسحب على مجتمع بأكمله لأن محمد شكري عينة يتضح من خلالها ما يمكن أن يفعله الفقر والجوع بالمجتمعات وما يستتبعه من أفعال مشينة وصفات سيئة موضحة في الشكل[38] الآتي:

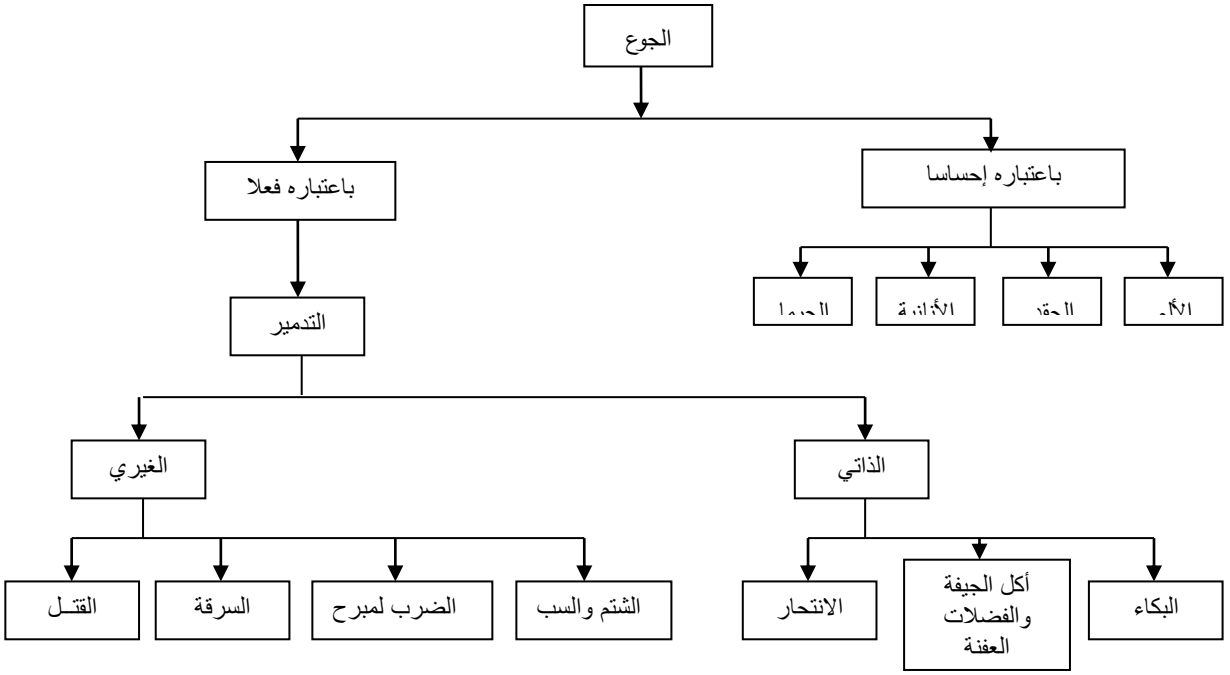

والمقصود بالتدمير الذاتي في أقصى درجاته هو تحرك الميولات الانتحارية لدى الجائع باستمرار، ودليل ذلك قول محمد شكري: « انبعثت لدي رغبة في أن أفني هذا الجسد الجاف بأي شيء. حلقي ناشف وقلبي يخفق من الوهن»[39]. في حين يريد بالتدمير الغيري في أقصى حالاته أي السرقة والقتل أن الحاجة والجوع قد تدفع الفرد إلى إيذاء غيره بالاعتداء عليهم لضمان بقائه هو، يقول محمد شكري في نصه إذ يعتبر سرقة أبناء الحرام حلالا: « سأسرق وأتسول، لكني في السادسة عشرة. السبتاوي كان على حق : التسول مهنة الأطفال والشيوخ العجزة عيب أن يتسول شاب قادر على السرقة إذا لم يجد العمل. هكذا قال لي، سأسرق في السوق... سأحاول قبل أن ينفذ ما لدي من نقود»[40].

إنها مأساة اجتماعية حقيقية تلك التي عاشها هذا الكاتب والمجتمع المغربي، الحرمان والجوع هذه الحالة المعقدة التي يتداخل فيها السيكولوجي مع البيولوجي ويتقاطع فيها الأثر السلوكي للأفراد بالواقع الاجتماعي العام.

كما يظهر بعد اجتماعي آخر في "الخبز الحافي" من خلال الطبقية التي تنتج عن منح حق المواطنة لأبناء الأسر المتجذرة في المدينة فقط ليكتشف محمد شكري أن انحداره من أصول اجتثتها الجدب والحرب والفقر يكسبه « صفة النفاية عن جدارة »[41]، ويدخله ضمن فئات هامشية تستوطن درك المجتمع، وتقطن بفضاءاته الواطئة والمظلمة[42].

إضافة إلى ما سبق استطاعت الرواية السير ذاتية "الخبز الحافي" أن تصور مناخات اجتماعية أخرى متعددة، كممارسة طقوس الشعوذة في مجتمع غلب عليه الجهل، والخروج إلى حياة الانحراف الأخلاقي في عالم سفلي يغيب فيه أي وازع أو رادع، في ظل غياب دور الأسرة إن لم نقل غياب الأسرة نفسها وتهشمها ككيان اجتماعي.

لقد عبر أغلب مؤلفي الروايات السير ذاتية في نصوصهم عن واقع اجتماعي يتنافى وطموحاتهم، بل ويعرقلهم عنها، كما صور هؤلاء صراعهم المستمر في مجتمعاتهم مع التقاليد والأعراف، وتحدثوا عن شعورهم بخيبة الأمل من واقعهم الاجتماعي وظروف عيشهم وبيئتهم لذلك يصبح النص السير ذاتي في بعده الاجتماعي عبارة عن مجموعة حلقات متداخلة ومتكاملة تدل كل منها على الأخرى وتتأثر بها، فالذات والأسرة والمجتمع تلتقي جميعا في دائرة السيرة الذاتية لأي فرد من الأفراد وفق المخطط الآتي:

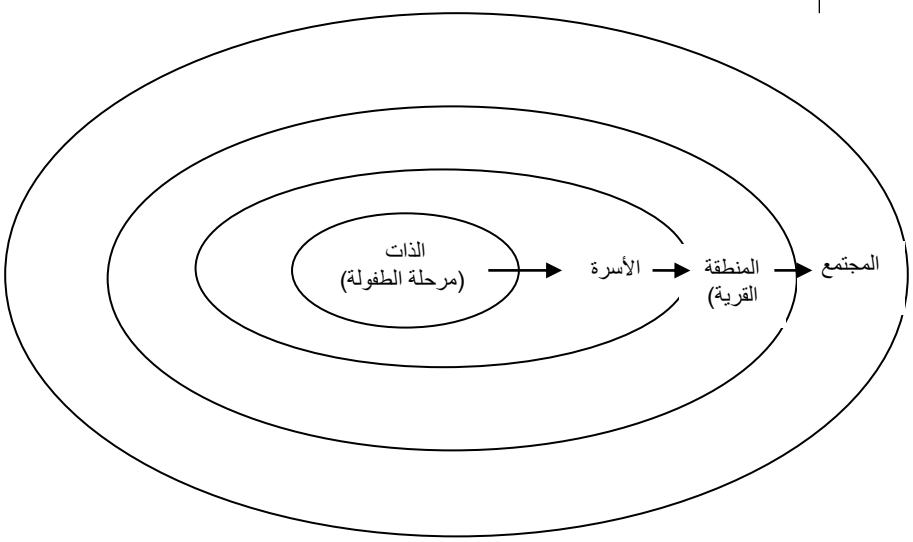

-مخطط حلقات تمثل المساحات التي تتحرك فيها الذات وتجمعها السيرة الذاتية-

وكاتب السيرة الذاتية عندما يصور واقعه الاجتماعي من خلال مادة حكائية يتفاعل معها لا يقصد إلا التأريخ لهذا الواقع بتفاصيله بقدر ما يريد العمل على إنتاج النص من خلال بناء عالم نصي ممتد في الزمان والمكان، وفي هذا يقول سعيد يقطين عندما تناول البنية الاجتماعية داخل بنية النص الروائي بالدراسة: «في عمليات الإنتاج النصي هاته تتدخل عوامل النصية وهي تبني نصيا حدود إسار البنية الاجتماعية، لأن الكاتب وهو يكتب الآن عن عصره وفي إطاره يكتب ضمن بنية نصية كبرى، ممتدة في الزمان والمكان، وبذلك تتحقق إنتاجية النص، وإلا تحول النص الأدبي إلى وثيقة تسجيلية يبحث فيها المؤرخ لا القارئ»[43].

وفي المحصلة؛ فإنّ الوقوف عند الحالة الاجتماعية بشكل مطرد في المرويات السير ذاتية استنادا إلى مرجعية اجتماعية حقيقية، من شأنه أن ينتج عالما نصيا سير ذاتي له هويته وخصوصيته وبنيته السوسيونصية.

قائمة المصادر والمراجع:

(1) جليلة الطريطر: مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص 734.

(2) كمال الرياحي: الكتابة الروائية عند واسيني الأعرج (قراءة في التشكيل الروائي لحارسة الظلال)، المغاربية للطباعة والاشهار، تونس،ط1، 2009، ص 201.

(3) المرجع نفسه، ص 202.

(4) المرجع نفسه، ص 203.

(5) الطاهر وطار: الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، موفم للنشر، الجزائر، دط،2004،ص 50،49.

(6) أحمد حيدوش: السيرة الذاتية في الرواية، مجلة المعارف،ع2، 2007.

(7) جليلة الطريطر: مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص 735،734.

(8) المرجع نفسه، ص 735.

(9) المرجع نفسه، ص 736.

(10) نقلا عن حسين عيد: نجيب محفوظ سيرة ذاتية وأدبية، ص 264.

(11) المرجع السابق، ص 265.

(12) محمد الباردي: عندما تتكلم الذات، ص 69.

(13) إدوارد سعيد: خارج المكان، ص 09.

(14) المصدر السابق ، ص09 .

(15) المصدر نفسه ، ص 09.

(16) سعد محمد رحيم: إدوارد سعيد: داخل الزمان...خارج المكان، مجلة الحوار المتمدن، ع1617،سنة 2006، ص 36.

(17) محمد معتصم: خطاب الذات في الأدب العربي، ص 75.

(18) فدوى طوقان: الرحلة الأصعب، ص 29.

(19) حمزة الحسن: الأعزل (سيرة ذاتية روائية)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت-لبنان، ط2، 2007، ص 154.

(20) المصدر نفسه، ص 161.

(21) المصدر نفسه، ص 166.

(22) محمد معتصم: خطاب الذات في الأدب العربي، ص 78.

(23) عصام العسل: فن كتابة السيرة الذاتية، ص21.

(24) مولود فرعون: نجل الفقير، ص 27.

(25) المصدر نفسه، ص 71.

(26) المصدر نفسه، ص 71.

(27) عبد الكبير الخطيبي: في الكتابة والتجربة، تر: محمد برادة، دار العودة، بيروت، ط1، 1980، ص 90.

(28) مولود فرعون: نجل الفقير، ص 83،84.

(29) المصدر نفسه، ص 71.

(30) صالح خرفي: المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، دط،ص 35،36.

(31) لقاء أو ملتقى نظمته جامعة العربي بن مهيدي مع الكاتب رشيد بوجدرة.

(32) محمد معتصم: خطاب الذات في الأدب العربي، ص 80.

(33) فدوى طوقان: الرحلة الأصعب، ص 86.

(34) محمد شكري: الخبز الحافي، ص 14.

(35) المصدر السابق، ص 09.

(36) هشام العلوي: الجسد والمعنى، قراءات في السيرة الروائية المغربية، ص 15.

(37) المرجع نفسه، ص 16.

(38) المرجع السابق، ص 17.

(39) محمد شكري: الخبز الحافي، ص 97.

(40) االمصدر نفسه، ص 105.

(41) محمد برادة ضمن تقديمه لمحمد شكري: مجنون الورد، ط1، دار الآداب، بيروت، 1979، ص 8 نقلا عن هشام العلوي: الجسد والمعنى، ص 18.

(42) هشام العلوي : الجسد والمعنى، ص 18.

(43) سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي، النص والسياق، المركز الثقافي العربي، الدا البيضاء،المغرب، ط3، 2006، ص 142.